مجلة كلية الدعوة الإسلامية

مجلة إسلامية - ثقافية - جامعة - محكمة

العدد العاشر
1993م.

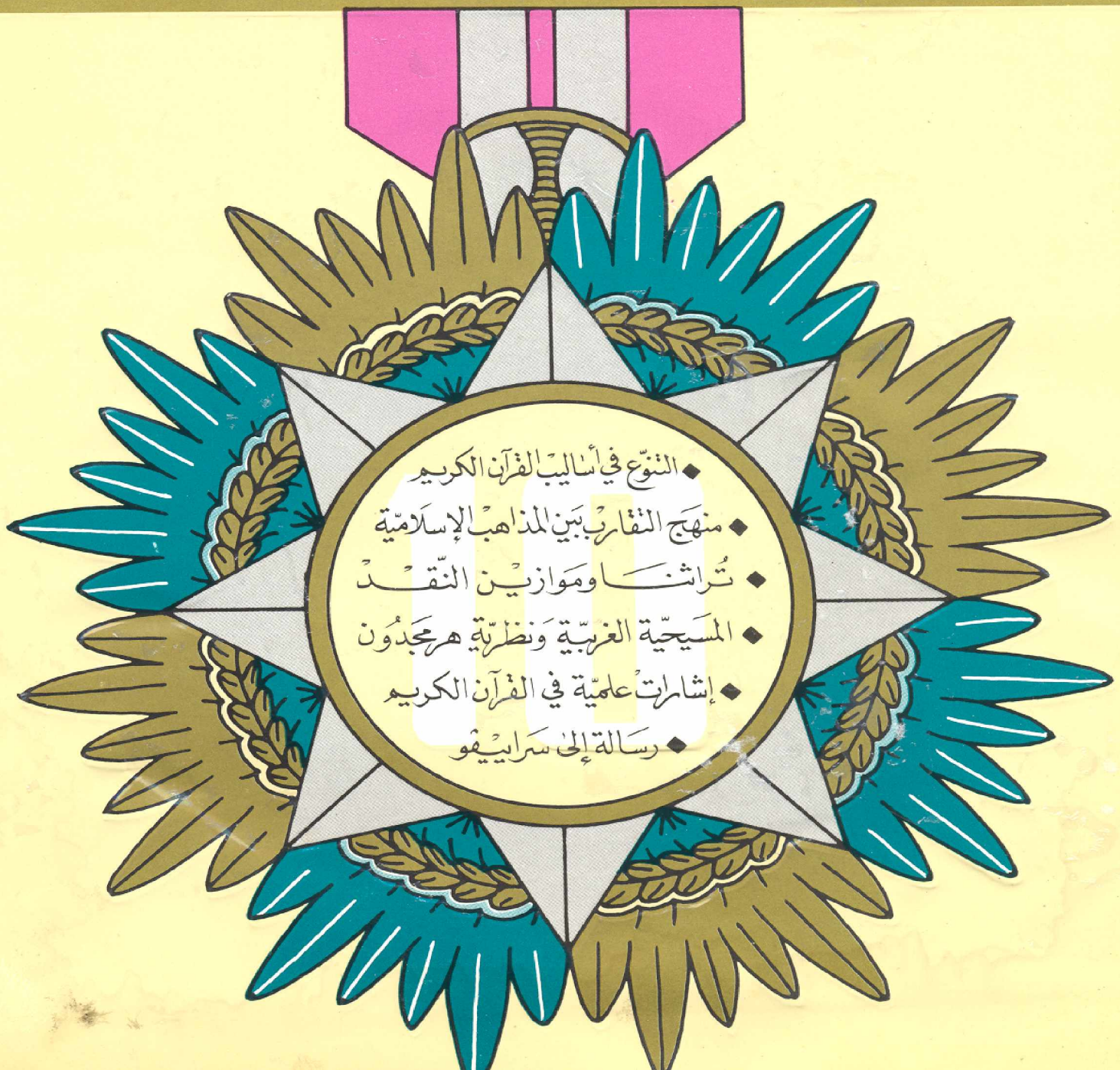

- التنوع في أساليب القرآن الكريم
- منهج التقارب بين المذاهب الإسلامية
- تراثنا وموازين النقد
- المسيحية الغربية ونظرية هرمجدون
- إشارات علمية في القرآن الكريم
- رسالة إلى سراييفو

المختار أحمد ديره

اللحن: لغة؛ الميل والإفصاح، ولحن في كلامه؛ إذا مال به عن الإعراب إلى الخطأ أو صرفه عن موضوعه إلى الإلغاز[1]، ولحّن في قراءته إذا غرد وطرب فيها بألحان، وفي الحديث «اقرؤا القرآن بلحون العرب»، وهو ألحن الناس إذا كان أحسنهم قراءة أو غناء، واللحن: ترك الصواب في القراءة والنشيد[2].

وألحنه القول: أفهمه إياه، ولحنه: فهمه، وفي الحديث قال رسول الله ﷺ: «إنكم تختصمون إليّ ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض» أي أفطن لها وأجدل قال ابن الأثير: اللحن؛ الميل عن جهة الاستقامة[3].

واللحن: بفتح الحاء اللغة؛ لذا روي أن القرآن نزل بلحن قريش أي بلغتهم. وفي حديث عمر رضي الله عنه «تعلموا الفرائض والسنة واللحن» أي اللغة. وقد وجه الزمخشري الحديث بقوله: «تعلموا الغريب واللحن لأن في ذلك علم غريب القرآن ومعانيه ومعاني الحديث والسنة، ومن لم يعرفه لم يعرف

(1) أساس البلاغة: الزمخشري.
(2) (3) لسان العرب: ابن منظور.

أكثر كتاب الله ومعانيه ولم يعرف أكثر السنن» وقال أبو عبيد: «تعلموا اللحن أي الخطأ في الكلام لتحترزوا منه»[4].

واللحن الذي نقصده في هذا الموضوع هو الخروج عن حد الصواب وصرف الكلام عن سننه الجاري عليها إما بإزالة الإعراب أو التصحيف أو دلالة المعنى. وقديماً قال بعض الأدباء إن اللحن محمود إذا لم يكثر لأن فيه بلاغه، وإياه قصد الشاعر بقوله:

منطق صائب وتلحن أحيا ناً وخير الحديث ما كان لحناً[5]

وقديماً شغل العرب بالجانب اللفظي وحده وذلك بعد أن اختلطوا بغيرهم من الأمم الأجنبية، حيث رأوا أن لغة الأعاجم قد تفسد عليهم لغتهم وذلك بإدخال بعض الألفاظ والتراكيب إليها وبنطق العربية بلهجة فيها لكنة وغير فصيحة، فمنذ أن خرج المسلمون إلى الغزوات الكبرى بعد وفاة النبي ﷺ لاحظ العرب أن اللحن أصبح يدب إلى لغتهم أكثر مما كان على عهد رسول الله ﷺ.

ويجمع النحاة وعلماء العربية على أن سبب وضع النحو هو انتشار اللحن وفساد الألسنة واختلالها، وذلك بعد أن عم نور الإسلام معظم أقطار الدنيا، فقد كان سبباً قوياً في انتشار الغة العربية في الأقطار المفتوحة، كما أنه كان سبباً أيضاً في قدوم تلك العناصر الأجنبية والأعجمية التي وفدت بعد إسلامها إلى عاصمة الخلافة «المدينة المنورة»، وإلى «مكة المكرمة» في الحج والعمرة. وكانت تلك الأفواج تختلط بالعرب في أسواقها وبيوتها ومساجدها ونواديها، وكان لذلك الاختلاط أثره في اللغة حيث دب إليها اللحن وتسربت إليها ألفاظ أحدثت فيها خللاً كان سبباً في نشأة النحو، وأرى أن أسباب نشأة النحو تنحصر في أربعة:

أ - سبب ديني ويتمثل ذلك في حرص المسلمين الشديد على أداء نصوص الذكر الحكيم صحيحة فصيحة سليمة خالية من اللحن، تفادياً لاختلال

---

(4) ينظر لسان العرب ابن منظور.

(5) البيان والتبيين: الجاحظ ح 147/1.

المعاني واختلاط الألفاظ واختلاف التراكيب والوقوع في الضلال الذي قال عن الرسول ﷺ عندما سمع قارئاً يلحن فقال: «أرشدوا أخاكم فقد ضل».

ب ـ سبب قومي ويرجع ذلك إلى اعتزار العرب بلغتهم وخشيتهم عليها من الفساد والاندثار والفناء، إلى جانب الذوبان في غيرها من اللغات، زد على ذلك الإحساس الذي يشعر به كل من يتعلمها والاعتزار الذي ينتمي إليه كل من ينطق بها.

حـ ـ سبب اجتماعي ويتمثل في حرص من دخلوا الإسلام من غير العرب على الاندماج في الدولة الجديدة، فكانت حاجتهم إلى تعلم لغة الدول، ومخاطبة الخليفة، وفهم تعاليم القرآن الكريم، سبباً في وضع أسس لرسمها صحيحة خالية من كل عيب.

د ـ رقي العقل العربي وتقدم الحياة التي أحوجت العرب في حياتهم اليومية إلى استعمالات جديدة لم تكن موجودة من قبل لتساير حياتهم[6].

واللحن بوصفه ظاهرة نشأت بسبب اختلاط العرب بغيرهم. وأرى أن التمدن والتحضر كانا سبباً أيضاً في نشأة اللحن إذ إن العرب عندما هجروا البادية وسكنوا المدن واختلطت لغتهم بغيرهم، ولم يعودوا يختلطون بالعرب الفصحاء دب اللحن إلى لغتهم وسرى في استعمالاتهم.

ونبه علماء العربية منذ زمن بعيد إلى أن ظاهرة اللحن يتعاظم خطرها على نص القرآن الكريم واللغة الفصحى، فهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه يبعث إلى جنوده وهم بأذربيجان يأمرهم بأشياء منها: «تعلموا العربية»[7] ويقرر أبو الطيب اللغوي أن أول ما اختل من كلام العرب فأحوج إلى التعلم الإعراب[8]، وهذا الزبيدي في مقدمة كتابه (طبقات النحويين واللغويين) يقول: «ولم تزل

(6) ينظر: دراسة في النحو الكوفي: مختار ديرة ص 44 وما بعدها.

(7) طبقات النحويين واللغويين: الزبيدي ص 3.

(8) مراتب النحويين ص 5.

العرب تنطق على سجيتها في صدر إسلامها وماضي جاهليتها حتى أظهر الله الإسلام على سائر الأديان، فدخل الناس فيه أفواجاً وأقبلوا إليه ارسالاً، واجتمعت فيه الألسنة المفرقة واللغات المختلفة ففشا الفساد في اللغة العربية، واستبان منها في الإعراب الذي هو حليها، والموضح لمعانيها فتفطن لذلك من نافر بطباعه سوء إفهام الناطقين من دخلاء الأمم بغير المتعارف من كلام العرب، فعظم الاشفاق من فشو ذلك وغلبته حتى دعاهم الحذر من ذهاب لغتهم وفساد كلامهم إلى أن سببوا الأسباب في تقييدها لمن ضاعت عليه وتثقيفها لمن زاغت عنه»[9].

وقد روي أن عبد الملك بن عبد العزيز كان يحذر أبناءه من اللحن، لأنه كان يرى أن اللحن في منطق الشريف أقبح من آثار الجدري في الوجه، وأقبح من التفتق في ثوب نفيس[10] ولا يسعني إلا أن أسوق أمثلة أوردتها كتب التراجم والموضوعات المتخصصة، تبين لنا بعضاً من أمثلة اللحن منها:

روي أن سبب وضع النحو أن علياً رضي الله عنه سمع قارئاً يقرأ ﴿**لا يأكله إلا الخاطئين**﴾[11]والصواب الخاطئون لأنها فاعل يأكل فوضع النحو[12] .

ويروى أيضاً أن أعرابياً قدم على خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب المدينة فقال: من يقرئني شيئاً مما أنزل الله تعالى على محمد ﷺ؟ فأقرأه رجل سورة براءة فقال ﴿**إن الله بريء من المشركين ورسوله**﴾[13] بجر رسوله فقال الأعرابي: أوقد برىء الله من رسوله؟ إن يكن الله تعالى برىء من رسوله فأنا أبرأ منه، فبلغ عمر رضي الله عنه مقالة الأعرابي فدعاه فقال: يا أعرابي! أتبرأ من رسول الله ﷺ؟ فقال: يا أمير المؤمنين إني قدمت المدينة ولا علم لي بالقرآن

---

(9) ص 1، 2.

(10) العربية: يوهان فك ص 36.

(11) الحاقة 37.

(12) نشأة النحو: طنطاوي ص 17.

(13) التوبة، آية: (3).

فسألت من يقرئني؟ فاقرأني هذا سورة براءة فقال: ﴿إن الله بريء من المشركين ورسوله﴾ فقلت: أو قد برىء الله تعالى من رسوله؟ إن يكن الله تعالى برىء من رسوله فأنا أبرأ منه فقال عمر رضي الله عنه: ليس هكذا يا أعرابي فقال: كيف يا أمير المؤمنين؟ فقال ﴿إن الله بريء من المشركين ورسوله﴾ ـ بضم اللام ـ فقال الأعرابي وأنا والله ابرأ ممن برىء الله ورسوله منهم، فأمر عمر رضي الله عنه ألا يقرىء القرآن إلا عالم باللغة وأمر أبا الأسود الدؤلي أن يضع النحو[14].

والأمثلة تنِدّ عن الحصر ولا تقع تحت إحصاء لكثرتها. وما يهمنا هنا أن جرثومة اللحن التي انتشر وخشي العرب أن تطول القرآن الكريم فوضعوا في محاربتها ما وسعهم أن يضعوه، وعابوا على الذين يلحنون وعدّوهم خارجين عن لسانهم، ووصفوهم بأبشع الأوصاف، وانبرت ثلة من الباحثين والفقهاء والعلماء تؤلف كتباً عدة تنبه على اللحن وخطورته، وهذه بعض أسماء الكتب ومؤلفيها.

1 ـ ما تلحن فيه العامة لعلي بن حمزة الكسائي ت 189 هـ.
2 ـ البهاء فيما تلحن فيه العامة لأبي زكريا يحيى بن زياد الفراء ت 207 هـ.
3 ـ ما تلحن فيه العامة لأبي عبيد معمر بن المثنى ت 209 هـ.
4 ـ لحن العامة لأبي عثمان بكر بن محمد المازني ت 248 هـ.
5 ـ لحن العامة لأبي حاتم السجستاني ت 255 هـ.
6 ـ لحن العامة لأبي حنيفة الدينوري ت 290 هـ.
7 ـ ما تلحن فيه العامة لأبي العباس أحمد بن يحيى ثعلب ت 291 هـ.
8 ـ ما تلحن فيه العامة لأبي نصر أحمد بن حاتم الباهلي ت 331 هـ.
9 ـ لحن الخاصة لأبي هلال العسكري ت 395 هـ.
10 ـ درة الغواص في أوهام الخواص للحريري ت 516.

وإلى جانب التنبيه إلى الأخطار تحدثنا كتب التراث عن أولئك الذين لم يلحنوا وعدوا منهم كما قال الأصمعي «أربعة لم يلحنوا في جد ولا هزل:

---

(14) نشأة النحو: طنطاوي 17، 18.

الشعبي، وعبد الملك بن مروان، والحجاج بن يوسف، وابن القرية، والحجاج أفصحهم» وقال ابن شبرمة يمدح الذين لا يلحنون «إذا سرّك أن تعظم في عين من كنت في عينه صغيراً، ويصغر في عينك من كان في عينك عظيماً، فتعلم العربية فإنها تجريك عن المنطق وتدنيك من السلطان»[15] ويقال «الإعراب حلية الكلام ووشيه» وقال بعض الشعراء:

النحو يبسط من لسان الألكن ... والمرء تكرمه إذا لم يلحن
وإذا طلبت من العلوم أجلها ... فأجلها منها مقيم الألسن[16]

وسمع أعرابي مؤذناً يقول: أشهد أن محمداً رسول الله بنصب رسول على أنها صفة لمحمد فقال له ويحك، يفعل ماذا؟ أي أنه لم يسمع خبر إن في الجملة.

وسمع أعرابي آخر إماماً يقرأ ﴿**ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا**﴾ بفتح تاء تنكحوا فقال: سبحان الله! هذا قبل الإسلام قبيح فكيف بعده، فقيل له: إنه لحن والقراءة «تنكحوا» بضم التاء فقال: قبحه الله لا تجعلوه إماماً بعدها فإنه يحل ما حرم الله»[17].

وقال علي بن محمد العلوي:

رأيت لسانَ المرء رائدَ عقله ... وعنوانَه فانظر بماذا تُعَنْون
ولا تَعْدُ إصلاحَ اللسان فإنه ... يُخبّر عما عنده ويُبين[18]
ويُعجبني زيُّ الفتى وجمالُه ... فَيسْقُطُ من عينيّ ساعة يلحن

وروي عن علي بن حمزة الكسائي المتوفى 189 هـ وهو أحد القراء السبعة أنه كان يمتدح الذين يقرؤون القرآن الكريم ولا يلحنون، ويشيد بالنحاة لأنهم يضبطون الكلام فقال:

إنما النحو قياس يتبع ... وبه في كل علم ينتفع
فإذا ما أبصر النحو الفتى ... مرّ في المنطق مرًا واتسع

---

(15)، (16)، (17) عيون الأخبار: ابن قتيبة 157/2.

(18) بهجة المجالس وأنس المجالس: ابن عبد البر 66/1 ط دار الكتب العلمية.

واتـقـاه كـلُّ مـن جـالـسـه ... مـن جـليس نـاطـق أو مـسـتـمـع
وإذا لـم يُـبْـصـر الـنـحـوَ الـفـتـى ... هـاب أن يـنـطـق جُـبـنـا وانقـمـع
يـقـرأ الـقـرآن لا يـعـرف مـا ... فـعـل الإعـرابُ فـيـه وصِـنـع
يـخـفـض الـصـوت إذا يـقـرؤه ... وهـو لا عـلـم لـه فـيـا اتَّـبـع
والـذي يـقـرؤه عـلـمـاً بـه ... إن عـراه الشـك في الحـرف رجـع
نـاظـرًا فـيـه وفـي إعـرابـه ... فـإذا مـا عـرف الـحـق صـدع
أهـمـا فـيـه سـواءٌ عـنـدكـم ... لـيـست السـنـة فـيـنـا كـالـبِـدَع
وكـذلـك الجهـل والـعلم فـخـذ ... منـه مـا شئت ومـا شئت فـدع[19]

وهذا أبو مسلم مؤدب عبد الملك بن مروان قد نظر في النحو وصار علماً فيه، ولكن عندما أحدث الناس التصريف لم يحسنه فهجا أصحابه بقوله:

قـد كان أخـذهم في النحـو يعجبني ... حتى تعـاطـوا كـلام الـزنـج والـروم
لمـا سمعت كـلامـاً لست أعـرفـه ... كـأنـه زجـل الـغـربـان والـبـوم
تـركـت نحـوهـم والله يعـصمـني ... من التقحم في تـلك الجـراثـيم[20]

لقد كان اللحن مرتبطاً أشد الارتباط باختلاط العرب بغيرهم من الشعوب والأمم غير العربية فما أن فتحت بعض البلدان ودخلها المسلمون الذين نقلوا لغتهم إليها حتى كان الاختلاط بين لغتي البلاد المفتوحة والوافدين إليها واضحاً، إلا أنه كان يقوى ويضعف، وكان له أثر في لغة الفاتحين، ولا يمكن أن يعيش الفاتحون بمعزل بلغتهم عن أهل البلاد المفتوحة «بل كان ثمة أخذ وعطاء في شؤون الحياة تبعه أخذ وعطاء أيضاً في اللغة ومن هنا نشأت لغة للتفاهم»[21].

وهـذا الاختلاط نشـأت عنه أخـطاء لغويـة أهمها مـا يتصل بـالإعـراب والتراكيب فأسرى الحروب في الفتوحات الإسلامية كان لهم أثر أيضاً في اللغة العربية. وتحكي لنا كتب التاريخ والأدب كثيراً من القصص عن أولئك الذين اشتروا أنفسهم مقابل أن يعلموا بعض العرب الكتابة، وعن أولئك الذين حرروا

(19) بهجة المجالس وأنس المجالس: ابن عبد البر 69/1.
(20) معجم الأدباء: ياقوت الحموي 193/13، 194.
(21) اللحن في اللغة العربية: يوسف أحمد المطوع ص 134 ط الكويت.

رقابهم بسبب بعض الأعمال التي قدموها للمجتمع الإسلامي، أو الذين اعتقوا بدخولهم في دين الله، كما أن لظاهرة الجواري والتسري أثراً كذلك في خلق جيل نشأ على غير ألسنة العرب الفصحاء. ونجد في كتب التراجم من كانت أمه قبطية أو بيزنطية أو فارسية أو غيرها وتخبرنا بعض الكتب عن هدية الخليفة الوليد بن يزيد لابن ميادة الشاعر وهي عبارة عن جارية من طبرستان وفي لهجتها شيء من اللكنة يقول لها ابن ميادة:

بأهلي ما ألذك عند نفس ... لو أنك بالكلام تعربينا
كأنك ظبية مضغت أراكا ... بواد الجزع حين تبغمينا[22]

وهذا الرشيد يقول يوماً لأولاده «ما ضر أحدكم لو تعلم من العربية ما يصلح به لسانه، أيسر أحدكم أن يكون لسانه كلسان عبده وأمته»[23].

ولقد كانت طبقة الموالي من الذين ساهموا في تنقية اللغة العربية بحرصهم على تعلمها على وجهها الصحيح، وكانت في سبيل طموحها إلى محاكاة الطبقة السائدة في الدولة الإسلامية التي كانت من الخلفاء وجلسائهم من جهابذة العربية، قد حملت لواء حركة تنقية اللغة العربية وذلك بإعلاء شأن اللغة البدوية الخالصة، فهذا الحسن البصري وهو ابن لأحد أسرى الحرب يضعه أبو عمرو بن العلاء ورؤبة إلى جانب الحجاج، وهذا زياد الأعجم في بلاط المهلب بن أبي صفرة ينال مجدًا وعلوًا لشعره على الرغم من كونه فارسيًا[24] وأما الحديث عن المولدين من الشعراء فيطول، ولحنهم كان كثيرًا مما دعا أهل اللغة أن يضعوا ابن ميادة آخر من يحتج بشعره.

وإذا ما تحدثنا عن اللبس الذي يؤدي إلى اللحن في الكتابة أو الكلام، فإننا نجد أن ذلك مرده من وجهة نظري إلى النقط أو الإعجام، وحركة الإعراب أو الشكل والجهل بالعلوم العربية أو العجمة التي لا تعرف العربية ومشتقاتها

(22) العربية يوهان فك ص 36.
(23) صبح الأعشى: القلقشندي 168/1.
(24) ينظر: العربية: يوهان فك ص 40 وما بعدها.

وسياقها. وإن سَوْق أمثلة سريعة يرينا كيف كان يحصل اللبس المؤدي إلى اللحن ومنها:

أ ـ الإعجام أو النقط: فكثيرًا ما كان القراء يقرؤون قوله تعالى﴿فتبينوا﴾ على «فتثبتوا» وإن كان معناهما واحدًا وكذلك «ننشزها» قرؤوها «ننشرها»، ولذا تنبه العرب الاوائل إلى نقط الحروف حتى لا يقع فيها تصحيف، وقيل أول من بدأ بذلك على المشهور هو أبو الأسود الدؤلي، وقد قال بعضهم «إعجام الكتب يمنع من استعجامها» ويقول القلقشندي« النقط مطلوب عند أمن اللبس لأنه إنما وضع لذلك»[25] ولذلك نرى أن العرب لم ينقطوا إلا الحروف المتشابهة حتى يميزوا بينها، وتركوا ما لا نظير له مثل الألف واللام والواو والكاف والهاء.

ب ـ الشكل أو حركة الإعراب: وأعني بها الضمة والفتحة والسكون والكسرة، وكان العرب الأوائل لا يضعون هذه العلامات على الحروف، ويرونها تنقص من قيمة الكتاب، ولذا يقول ابن درستويه «ومن شأن كتاب الدواوين التخفيف وإغفال الشكل من كل ما وضح ولم يلتبس»[26].

جـ ـ الجهل بعلوم العربية: وهذا مؤداه الجهل بمفردات الكلمات وتصريفها، فالذي كان يقول عن قول الله تعالى ﴿يوم ندعو كل أناس بإمامهم﴾ أن الله سيدعو الناس يوم القيامة بأمهاتهم يجهل بلا شك أن إمام ليست جمعاً لأم، وزاد على ذلك أن الله تعالى سيدعونا يوم القيامة بأمهاتنا حتى لا يحرج عيسى عليه السلام، وهذا خطأ فظيع مؤداه الجهل بعلوم العربية والأمثلة على ذلك كثيرة.

د ـ العجمة: فحين فتحت البلاد ودخل الإسلام وهبَّ الناس لتعلم العربية لغة القرآن الكريم، وهو الدستور الجديد، وجدت لهجات غير عربية تتحدث العربية، ونشأت على ألسنتهم غير السليمة لهجات صوتية تخالف العربية نطقاً، فأبدلوا حرفاً مكان حرف قريب منه في المخرج، والأمثلة على ذلك كثيرة جداً.

---

(25) صبح الأعشى 158/3.

(26) اللحن في اللغة العربية: يوسف أحمد المطوع ص 182.

ونستطيع القول إنّ ترك الإعجام والشكل والجهل بالعربية والعجمة كانت أسباباً جرَّت الكثير من اللحن إلى العربية، وإن إهمال شكل الحروف إلى يومنا هذا يسبب لحناً وخطأ لطلاب المدارس والجامعات، فالكتب المدرسية الخالية من شكل بعض حروفها يقرؤها الطلاب خطأ ويحفظون بعض التراكيب خطأ، فالذي قرأ مثلاً قوله تعالى ﴿**يس والقرآن الحكيم**﴾ وبدون أن تضع أمامه كسرة تحت النون في القرآن، وأخرى تحت الميم في الحكيم، ترى هل يقرؤها والقرآنُ بالضم أو القرآنَ بالفتح.

إن وضع علامات الإعراب على الحروف في الطباعة اليوم سيقضي على لحن كثير ولبس أكثر، وسوف يعين الطلاب على معرفة لغة سليمة خالية من اللحن تنمي فيهم الإحساس بقيمة هذه اللغة وتعينهم على فهم القرآن الكريم، وعندئذ سيعرفون «**إنما يخشى الله من عباده العلماء**» أن العلماء بضم الهمزة فاعل يخشى، وأن الله بالفتح هو المنصوب بيخشى على التعظيم، ويقابله في العربية «مفعول به» ولم أقل ذلك لأن الله سبحانه يفعل ولا يفعل به شيء، وحينما يقرأ قوله تعالى ﴿**ولينصرن الله من ينصره**﴾بضم الهاء في الله، يفهم أن الله هو الفاعل وأنه هو الذي ينصر من ينصر دينه باتقائه والعمل بما فيه، أما إذا تركت بلا شكل فربما قرأ الله بالنصب وبعدئذ يختلف المعنى.

وعلينا وقد رأينا أسباب اللحن ـ أن نقدم كتاباتنا مشكولة مضبوطة حتى لا يقع فيها لبس، خاصة للمبتدئين، وعلينا أيضاً أن نعتني بالمعاجم ونبسِّطها للمبتدئين أيضاً، ونترك الأخرى للمتخصصين فليست هناك فائدة في معجم ضخم يقدم لطالب في الإعدادية أو الثانوية، ولا يفوتني أن أنبه إلى الاعتناء بلغة القرآن الكريم وحفظ مفرداته وتراكيبه، واستعمال العبارات السليمة في تعليم الطلاب، وأن نبتعد عن العامية، فهي شر ابتليت به الأمة العربية، أبعدها عن دستورها الخالد. فالقرآن الكريم هو صاحب الفضل في حفظ اللغة إلى يومنا هذا، ولولاه لكانت العربية في عداد اللغات الميتة المندثرة كالأشورية والحميرية.